Language in the novelist discourse from unilateralism to pluralism

اللغة في الخطاب الروائي من الأحادية اللغوية إلى التعدد

طاهري بلقاسم
جامعة طاهري محمد بيشار
tahibel@gmail.com

د/بوشيبة بوبكر
جامعة زيان عاشور بالجلفة
bouchibab33@gmail.com

قدم للنشر في: 2019/10/06
قبل للنشر في: 2019/11/20

Abstract:

This study is conducted in the orbit of the language, through the "Bakhtin" orbit, where it seeks to review one of the most important theories of the linguistic world "Mikhail Bakhtin" in the field of novelist discourse, and marked by multilingualism as a new perception in the approach of the language of the novel type that comes from its crutial nature that stands on the diversity and the pluralism, due to the procedural infertility proved by many of the previous approaches because of the nature of dealing with its stylistic material, where it is treated as a unified method issued by a creative personality as the rest of the based on pluralism due to its types of literature, especially poetry, regardless of its stylistic nature . absorption capacity Allowing him to host various languages and dialects within the language field.

الملخص :

تدور هذه الدراسة في فلك اللّغة، عبر المدار **"الباختيني"**، حيث تسعى إلى استعراض إحدى أهم نظريات العالم اللغوي "ميخائيل باختين" في مجال الخطاب الروائي، والموسومة بالتعدد اللغوي باعتباره تصورا جديدا في مقاربة لغة الجنس الرّوائي، ينطلق من خاصيته الجوهرية القائمة على التعدد والتنوع، نتيجة العقم الإجرائي الذي أثبتته كثير من المقاربات السابقة بسبب طبيعة تناولها لمادته الأسلوبية، حيث تعاملت معه باعتباره أسلوبا موحدا يصدر عن ذات مبدعة مثله مثل باقي الأجناس خصوصا الشعر، دونما مراعاة لطبيعته الأسلوبية القائمة على التعدد نتيجة ما يحضا به من طاقة استيعابية تتيح له استضافة مختلف اللغات واللهجات ضمن بساطه اللغوي.

الكلمات المفتاحية: اللغة السردية / التعدد اللغوي / مستويات اللغة / الأسلوب الروائي/ الأجناس المتخللة/ اللغة الروائية/ التنوع الأسلوبي.

العرض:

لقد شكلت اللغة السردية على مر الزمن كيانا معقدا لطالما استوقف كثيراً من الدارسين بسبب طبيعته القائمة على الارتحال والتجدد، حتى باتت تتأبَّى على كثير منهم بسبب عجز ما في أيديهم من أدوات إجرائية أمام حجم التباين والاختلاف الحاصل ضمن لغته كنتيجة حتمية للاختلافات الأسلوبية الوافدة إليه من لغات ولهجات مختلفة، حتى ظهرت نظرية باختين القائمة على إثبات صفة التعدد والتنوع لهذا الكيان اللغوي، مستمدةً فاعليتها من خلال استثمارها لمختلف التصورات الفلسفية والاجتماعية واللّغوية، أثناء إرسائها لآليات المقاربة السردية، اعتقادا منها بعدم فاعلية الأدوات الإجرائية السابقة التي أوجدتها مختلف التيارات النقدية. كونها لا تفرد جنس الرّواية في الدراسة – بسبب طبيعته المختلفة – عن باقي الأجناس الأخرى، حيث يقول حميد لحميداني في هذا الصدد: " لماذا لم تقم في العالم العربي (وفي الغرب إلى حد ما) بلاغة أو أسلوبية خاصة بالرّواية؟ ونحن ندرك – مع ذلك – أن الدراسات الغربية الحديثة، لامست هذا الموضوع تحت اسم الأسلوبية أو الشعرية، غير أن كثيرا من الأبحاث الأخرى أُبْعِدت خلاصاتها واستنتاجاتها التي تبدو لنا شديدة الأهمية في هذا المضمار."[1] لما اتسمت به من جدية، من شأنها التأسيس لقراءة فاعلة في هذا الصدد.

أما البلاغة العربية القديمة فقد انحصر جل اهتمامها في الشعر، لذا لم تكلف نفسها عناءً حين تناولت النصوص الرّوائية والقصصية بأدوات الشعر، فحاولت رصد المظاهر الجمالية الجزئية،"لكن سرعان ما خيبت الرّواية كل آمالهم كونهم لم يجدوا في لغتها إشراقة العبارة نفسها التي عهدوها في الكتابة الشعرية أو في الخطب والرسائل الفنية"[2]، باعتبارها فناً يعكف على استيعاب جميع صنوف اللّغات بما فيها العامية التي لا تتوافر على أدنى متطلبات البلاغة العربية.

ثم إن الاهتمام الكبير الموجه نحو الشعر، أوجد تراكما نظريا هائلا حول أسلوبية الشعر، مما انعكس على لغة الرّواية دونما مراعاة لخصوصيتها، "مشَكِّلا بذلك سلطة نقدية خطرة، وجهت الباحثين في لغة الرّواية وجعلتهم يقعون أسرى تصورات ومفاهيم تجذّرت في حقل الشعر « كجنس أدبي » له قوانينه الأسلوبية وآفاقه التّخييلية، التّي تختلف بالضرورة عن الجنس الرّوائي."[3]

إن الاختلاف الحاصل في خصوصية الجنسين يستوجب أن يملك كل منهما أدواته الخاصة التّي تتوافق وطبيعته، فبعض المقاربات النقدية القديمة تفترض "أن يتناظر الأسلوب وفكر صاحبه، إذ كل أسلوب هو صورة خاصة بصاحبه تبين طريقة تفكيره، وكيفية نظره إلى الأشياء وتفسيره لها وطبيعة انفعالاته"[4] عملا بعبارة « بيفون » الشهيرة "«الأسلوب هو الرّجل» حيث

[1] حميد لحميداني أسلوبية الرّواية (مدخل نظري) منشورات دراسات سميائية أدبية لسانية ط1 1989، ص: 04

[2] المرجع نفسه، ص:05

[3] محمد بوعزة، حوارية الخطاب الرّوائي، التّعدد اللّغوي والبوليفونية، منشورات اتحاد كتاب المغرب ط1 2012، ص: 12

[4] عبد السّلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، الدار العربية للكتاب، ط03، ص: 66

نافح بوجه خاص فقه اللّغات الحديث ذو النزوع المثالي عن هذا المفهوم، فهو يعتبر الأسلوب تعبيرا عن شخصية شعرية"[5] داعيا بذلك إلى مقاربة الإبداع الفني انطلاقا من المبدع.

إنّ هذا الطرح قد يؤتي أكله في جانب الشعر وخصوصا الغنائي منه وذلك بحكم ارتباط الأسلوب بذات الشاعر، فهو يستطيع أن يتخيل موقفا معينا ويتقمصه، ثم ينبري في التّعبير عن الخلجات والأحاسيس متخيرا ما يتناسب ورؤيته الخاصة من ألفاظ وعبارات تخدم الموقف وتلونه بما ارتضاه هو لها من ألوان، في حين تأبى الرّواية ذلك "فتقمص الشخصيات، لا يمكن أبدا أن يقارن بتقمص موضوع أو موقف، لأن الموضوع أو الموقف له فقط طبيعة الموضوع أو الموقف، أما الشخصية فلها طبيعة موضوعية بالنّسّبة لشخصية الكاتب على سبيل المثال، ولها إضافة إلى ذلك طبيعتها الذّاتية الخاصة بها، وهذا يعني أنّ تقمصها سيكون في الوقت نفسه تقمصا لها باعتبارها موضوعا وذاتا وهذا يعني أنّ الذّات المتقمِّصة ستلغي الذّات المتقمَّصة أي أنها ستحل محلها."[6] وهذا ما سيطمس كثيرا من المعالم الدلالية، بفعل تقييد حرية شخوص الرّواية نتيجة الهيمنة التي يمارسها السارد عليها، "في حين أنّ "الرّواية من هذا الجانب مثلها مثل المسرح، تعطي الفرصة للذوات الأخرى لكي تعرض نفسها بأمزجتها المختلفة وأساليبها المتميّزة، وهكذا فالكاتب (أو الرّاوي الذّي ينوب عنه) يتقمص كل هذه الأدوار ويصطنع أساليب الشخصيات المؤدية لها، ومن الطبيعي أن تكون هذه الأساليب المستخدمة هي غير الأسلوب الخاص للكاتب، لأنّنا ستكون مثار سخرية لو اعتقدنا مثلا بأن الممثل الذّي يتقمص شخصية صعلوك ويستخدم أسلوبه هو نفسه صاحب الأسلوب، لأنّ ذلك سيترتب عنه أنّه هو نفسه ذلك الصعلوك المتقمَص."[7]

إذاً فطبيعة النوع الأدبي للرواية تقتضي تعاملاً خاصاً ينطلق من التّعددية الأسلوبية التي تمثل الخاصية الجوهرية للجنس الرّوائيّ، لذا كان باختين يشير دائماً إلى هذه الخاصية الجوهرية، فهو يرى أن الرّواية ترفض مطلقية اللّغة الواحدة أو الوحيدة، باعتبارها "ظاهرة متعددة في أساليبها، متنوعة في أنماطها الكلامية، متباينة في أصواتها، يقع الباحث فيها على عدة وحدات أسلوبية غير متجانسة توجد أحياناً في مستويات لغوية مختلفة وتخضع لقوانين أسلوبية مختلفة"،[8] خلاف باقي الأجناس والتي غالبا ما تسير وفق خط أسلوبي أحادي يكون بمثابة بصمة أدبية خاصة بالمبدع،"وعليه فالخصائص والبنيات الجوهرية الكبرى لكل جنس أدبي من الأجناس، تنعكس على النّسيج اللّغوي له، وعلى اشتغال عناصره وأجزائه وفق قانون معين، مما يفرض على الدارس أن يراعي في بحثه الخصوصية النّوعية لكل جنس أدبي."[9] فمن غير المعقول أن نتعامل مع الأجناس الأدبية على اختلافها بالأداة نفسها، وخصوصا جنس الرّواية، التّي يكتسي أسلوبها طابعه الخاص والمتفرد عن باقي الأساليب "إذ أنّ له طبيعة مخالفة

[5] هنريش بليت، البلاغة والأسلوبية، ترجمة محمد العمري، افريقيا الشرق 1999، ص: 52

[6] حميد لحميداني أسلوبية الرّواية (مدخل نظري) ص: 54

[7] المرجع نفسه، ص: ن

[8] طه حسين الحضرمي، أسلوبية الرّواية في الرهينة.، موقع شبكة الأمة : الرابط:http://www.thenationpress.net

[9] محمد بوعزة، حوارية الخطاب الرّوائي، التّعدد اللّغوي والبوليفونية،ص: 13

مادام هو القدرة المنظمة للأساليب المتعددة في النّص، فأسلوب الرّواية هو ذلك النّظام الذّي تنتظم عبره مختلف الأساليب، ولهذا يمكن **القول بأنّ أسلوب الرّواية ليس في الواقع ذو طبيعة أسلوبية بل هو على الأصح ذو طبيعة مفهومية**، لأنّه ماذا نعني في النّهاية بانتظام مجموعة من الأساليب؟ إنّنا نعني به انتظام مجموعة من التّصورات، والمفاهيم والرّؤى للعالم التّي لا تُقصَدُ هي نفسها لذاتها، ولكن يُنْظَرُ بالأساس إلى الدلالات التّي تنشأ عن العلاقة القائمة بينها، كما أنّ الأساليب المؤداة بها – هي غالبا ما تكون مناسبة لها – لا تعبر بالضرورة عن أسلوب الكاتب، فقد يكون أسلوب الكاتب فقط واحدا من تلك الأساليب المتشابكة، ولن تكون له مع ذلك قيمة دالة كبيرة بقدر القيمة التّي تكون للقوة المؤَسْلِبة في مجموع العمل."[10]

ثم كان الحقل اللساني،المتأثر بأفكار دوسوسير "الذي تعامل مع اللّغة على أنّها بناء مستقلّ، له أنساقه ودلالاته وقوانينه وضوابطه المكتفية بنفسها، والتّي يمكن أن تدرس دراسة علمية دقيقة"[11]، غير أن مثل هذه الدّراسات لا يمكن اسقاطها على الفنّ الرّوائي، لما له من خصوصية لغوية تقتضي التّنوع والتّعدد من جهة، كما أن تناول اللّغة لذاتها بمعزل عن جميع مشكلات الفن الروائي، لا يمكن أن يفضي بهذه المقاربة الأسلوبية إلى نتيجة يمكن الاطمئنان إليها، لذلك بقيت محصورة في حقلها اللساني.

ثم كان الدور على الشكلانيين"حيث انطلقوا من أسئلة حول تمظهرات شعرية النّص الأدبي ومحددات خصائصه الشّكلية، إذ وجدوا في الألسّنية الحديثة مستودعا يستمدون منه المصطلحات ويسعفهم على قياس البنى الأدبية بمقاييس البنية اللّغوية"[12] بعيدا عن المبدع ودونما مراعاة لخصوصيات الأجناس الأدبية، كالرّواية التي تختلف أساسا عن أي جنس آخر، بفعل التّعدد الحاصل في الأساليب والرّؤى واللّغات ...إن ضيق أفق هذه الرّؤى – في نظر « باختين » – جعله يبحث لنفسه عن موقع نظري مغاير، حيث راح "بتأثير من الفلسفة الماركسية، وباطّلاع جلي على الألسنيّة وأبحاث الشّكلانيين والأسلوبيين، وبوعي أيضا لسلبيات الوثوقية الايديولوجية التجريدية، يطرح مسألة شعرية الخطاب الرّوائي بطريقة مغايرة لمفهوم الخطاب الشّعري السّائد آنذاك."[13] متجاوزا بذلك النظريات السابقة على اختلاف مجالات دراستها، أسلوبية كانت أو لغوية، بما فيها النظرية القائمة على فصل اللّغة عن الجنس الأدبي الذي تتمظهر وفق ضوابطه والبحث عن بدائل فنية تستمد أسسها من الخصوصية اللّغوية للجنس الأدبي، "ومن امتدادات القول الاجتماعية. كون (الكلمة) نفسها، أي القول الرّوائي، مأخوذة من عدة أصوات، أو تأتي في تصالب عدة ثقافات"[14] تبعا للمغايرات الاجتماعية التي يزخر بها فضاء كل رواية.

---

[10] حميد لحميداني أسلوبية الرّواية (مدخل نظري) ص: 54

[11] ميخائيل باختين، الخطاب الرّوائي، ترجمة محمد برادة، دار الفكر للدراسات والنشر والتّوزيع، ط 1، القاهرة 1987، ص: 14

[12] المرجع السابق، ص: 14

[13] م، ن، ص: 14 و15

[14] عدنان بن ذريل، النص و الأسلوبية – بين النظرية والتطبيق منشورات اتحاد الكتاب العرب 2000، ص: 64

فالرّواية شاءت أم أبت، تستقبل عناصر كثيرة، مثل: "سرد الكاتب، سرد الشخوص والشاهدين، وصف المناظر، والطبيعة، والأماكن والأشياء النادرة، والتوصيفات المتكّلفة، والاستطرادات المتوخية إتمام المواضيع ...الفلسفية والأخلاقية، وكذلك الأقوال المأثورة، والمحكيات المتخيلة،"[15] و لغات الأجناس المتخللة، مما يجعل من العسير إمكانية التناول وفق المعايير التقليدية المعتمدة أساسا على فصل مكونات الخطاب ومقاربتها بعيد عن الأطر الخارجية له، أو محاولة ربط الأسلوب بالمبدع وغيرها من الإجراءات التي لا تراعي خصوصية الفن الروائي.

وصفوة القول أن أسلوب الرّواية يفترض نوعا خاصا من التّعامل، بحكم التّعدد والتّنوع الحاصل في بنيته اللّغوية على خلاف جنس الشعر الذي تصلح فيه المقاربة البلاغية كونها تركز أساسا على مبدأ فردانية المبدع والأسلوب، كما أنّ طبيعة اللّغة الموسومة بالأدبية والجمال فيه تشجع على التعامل معه تجزيئا، اعتمادا على مقاييس بلاغية أو لسانية، "خلاف الرّواية التي لا تكتفي في بناء أساليبها بالمعطيات البلاغية، أو اللسانية فهي تؤسس أسلوبا من نمط آخر يعتمد على مزج هذه الأساليب نفسها،"بحيث أنّ أيّة محاولة ترمي إلى تطبيق الصورة الشعرية ومعاييرها على الرّواية مآلها إلى الاختناق،"[16] نتيجة التباين الأسلوبي بين الجنسين من جهة، والتباين السلوبي ضمن جنس الرواية ذاته من جهة أخرى.

كما أنّ التعامل مع لغة الرّواية لذاتها، أي باعتبارها غاية لا وسيلة، بالبحث في مكوناتها وعلاقاتها الداخلية، لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يصل بنا إلى مقاربة أسلوبية شاملة يمكن الاطمئنان إليها، كونها تمعن النظر في جزئيات اللّغة، وتغفل خصوصية الأسلوب الروائي باعتباره تشكيلا أسلوبيا متنوعا.

ومن هنا مثلت الرّواية بالنسبة لباختين "مجالا لدحض أطروحات الشكلانيين والأسلوبيين (التقليديين كما يسميهم) وأيضا لتشييد نظريته حول الرّواية، وعن الطابع الغيري للإبداع والتواصل، فالرّواية في نظره، «هي التّنوع الاجتماعي للّغات، وأحيانا للّغات والأصوات الفردية، تنوعا منظما أدبيا»"[17] لذا توجب إيجاد بديل من شأنه أن يقارب هذا الجنس مقاربة تأخذ في الحسبان طبيعة بنيته المشكلة من تعدد الأساليب وتنوعها.

- **مآخذ باختين على المقاربات التقليدية :**

سعيا منه إلى كشف النّقاب عن الخصوصية الأسلوبية للفن الرّوائي، يحاول « باختين » بدايةً، توضيح خمسة أنماط من التّحليل الأسلوبي القائم آنذاك للغة الرّواية، والتي يرى أنها أجحفت في حق الأسلوب الروائي كونها لم تراعي فيه خصوصياته التي تفرّده عن باقي أساليب الأجناس الأخرى، ممثلة فيما يلي :

---

[15] فيصل دراج، المقال: الكلمة، اللّغة، الرّواية، مجلة الآداب الأجنبية، ص: 140

16 صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون الكويت أوت 1992، العدد 164، ص: 272

[17] ميخائيل باختين، الخطاب الرّوائي، ص: 15

1. "يجري تحليل أدوار المؤلف في الرّواية، أي كلمة المؤلف المباشرة فقط، والمفروزة بقدر أو بآخر من الصحة، من وجهة نظر التّصويرية والتّعبيرية الشعرية المألوفة، مثل الاستعارات والتّشبيهات والتنخل المعجمي وغيرها.
2. يتم استبدال التّحليل الأسلوبي للرواية بوصفها كُلاً فنيا، حيث يقدم بدلا من ذلك وصف ألسّني محايد للغة الرّواية.
3. تختار من لغة الرّوائي العناصر المميزة للاتجاه الفني الأدبي الذّي ينسب إليه الرّوائي، مثل تلك العناصر المميزة للاتجاهات الرومنتيكية أو الطبيعية أو الانطباعية أو غيرها.
4. يجري البحث في الرّواية عمّا يعبر عن فردية المؤلف، أي تحلل لغة الرّواية على أنّها الأسلوب الفردي للغة الرّوائي.
5. تدرس الرّواية على أنّها جنس بلاغي، وتحلل وسائلها وطرقها من وجهة نظر فعاليتها البلاغية فحسب"[18]

إنّ أنماط التّحليل الأسلوبي الخمسة جميعا في نظر « باختين » أغفلت بقدر أو بآخر خصائص الجنس الرّوائي، حيث تتعامل مع لغة الرّوائي وأسلوبه على أنّهما لغة الرّواية وأسلوبها، ويُتناولان إمّا بوصفهما تعبيرا عن فردية المبدع أي الرّوائي، وإمّا بوصفهما أسلوب اتجاه أدبي فني معين، وإمّا بوصفهما ظاهرة اللّغة الشعرية العامة، وكل هذه الأوصاف تحجب عنّا في هذه الحالات الجنس الرّوائي نفسه بمتطلباته الخاصة.

إنّ هذه المقاربات وإن أثبتت وجودها في حقل الشّعر، أو حتى في الرّواية المنولوجية – على أقصى تقدير – فلأنّ الأجناس المونولوجية تقوم في عمومها على وحدة اللّغة وحضور بصمات ذات المبدع في أسلوبه ولغته، أما الرّواية متعددة الأصوات فإنّها تحلّق في فضاءات لغوية متعددة، رافضة أن تنتظم تحت أسلوب بعينه، "كما أنّ أسلوب الرّوائي إذا اعتبرنا أنّه موجود، فإنّه ليس إلاّ واحدا من بين أساليب ولغات متعددة، ثم إنّ لغة الرّواية برأي « باختين » هي التّفتيت الداخلي للّغة، وتنوع اللّغات الاجتماعية واختلاف الأصوات التّي تتصادم داخلها".[19] مما يعيق انتظام أسلوب الرّواية تحت شكل متفرد، أو من ذات وحيدة متفردة، ممثلة في الكاتب/ السارد.

فالكاتب/ السارد حين يستأثر بلغة الرّواية لنفسه، فيعمد إلى التعبير بها وفق أسلوبه الوحيد – غير القابل للتنويع- عن مختلف المواقف الروائية، ويُنطق بها شخصياته دونما مراعاة لمستوياتها، أو لخصوصيات الوعي لديها، فرضاً لمنطقه ووعيه أو مُسايرةً لاتجاهه الفني، أو يَعمد إلى لغة الشعر فيجعل منها لغة الرّواية دون غيرها جريا على عادة الفن في عصره، فإنّه يطمس كثيرا من خصوصيات الأسلوب الروائي، القائمة على التّعدد والتّنوع، تبعا لتعدد شخوص الرّواية ومواقفها التي تعرض لها.

18 صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 271

[19] محمد بوعزة، حوارية الخطاب الرّوائي، التّعدد اللّغوي والبوليفونية، ص:16

ونتيجة لذلك نجد الدراسات التي تناولت مثل هذه الأنواع من الروايات "لا تعثر إلا على تنويعات أسلوبية طفيفة نسبيا سواء كانت فردية أو تميّز اتجاها أدبيا معينا، وهذه التنويعات الطفيفة تحجب عن ناظرنا حجبا تاما الخطوط الأسلوبية الكبرى المحكومة بتطور الرّواية بوصفها جنسا خاصا."[20]. فأسلوب الرّواية يتشكل من مجموع الأساليب التي تفرزها تدخلات شخوص الرّواية وأجناسها المتخللة، إضافة لصوت الكاتب. لذا فهذه الدراسات – وفق هذا المنطق – لم تقارب أسلوب الرّواية الحقيقي وإنما قاربت أسلوبا واحدا من جملة الأساليب التي يُفترض أن تضمها الرّواية ممثلا في أسلوب الكاتب.

ويضيف باختين في هذا المجال، حين يؤكد على الخاصية الجوهرية للغة الرّواية القائمة على الحوارية والإنارة بالتّعدد، "فلغة الرّواية نظام لغات تنير إحداها الأخرى حواريا، ولا يجوز تحليلها باعتبارها لغة واحدة ووحيدة."[21] إنها بمفهومه، أشبه بلغة أمٍ تشكل تراكيبها من لغات مختلفة، وهذه التراكيب تتكامل فيما بينها، بأن تضيء إحداها الأخرى، فحضور لغة التراث جنبا إلى جنب مع اللّغة الآنية في الرّواية مثلا، ليس ديكورا لغويا شكليا، وإنّما هو مطلب دلالي وفنّي، استنجدت على إثره لغة بأخرى، لتعينها على حمولة دلالية وغاية جمالية تسعى إلى ابرازها. "فلو أننا ألغينا هذه الترابطات القائمة على الأنواع المختلفة للأصوات والأساليب، وكل أنواع ابتعاد اللّغات المصورة عن كلمة المؤلف المباشرة، لكانت لدينا كتلة من الأشكال اللّغوية والأسلوبية غير المتجانسة، لا يشدها معنىً ولا أسلوب, لغة الرّواية لا يجوز وصفها في مستوىً واحد، إنّها نظام مستويات متقاطعة.[22]

وبالعودة إلى المقاربة اللّسانية "التّي لا تحتفظ في اللّغة إلاّ باللّسان والشكل النّحوي المجرد، لذلك فإنّ التّطبيقات اللسانية، على الأدب، لا تعد تحليلا أسلوبيا للأثر الأدبي، لأنّها تظل متصلة بنسق اللّغة بالمعنى السّويسري"،ولا تتصل بنسق الأثر الأدبي كنوع أدبي له قواعد مغايرة لقواعد اللّغة"[23]، فقواعد وأشكال الجنس الأدبي تفرض على اللّغة أن تستجيب لمتطلباته الخاصة، "فلكي تكون الدراسة ملموسة ومنتجة عليها أن تنطلق دوما من كونها أساليب لسان تنتمي إلى جنس، وعليها أن تتأسس على الدراسة المسبقة للأجناس في تنوعها، وحتى الآن فإنّ أسلوبية اللّسان تجاهلت مثل هذه الأسس، وهنا يكمن ضعفها،"[24] القائم على تفكيك اللغة بالنظر غلى جزئياتها بعيدا عن نسقها العام والشمولي الذي يمنح للجنس الأدبي خصوصيته وحضوره الأدبي.

---

[20] صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 271

[21] المرجع نفسه، ص: 272

[22] المرجع السابق، ص: 272

[23] محمد بوعزة، حوارية الخطاب الرّوائي، التّعدد اللّغوي والبوليفونية، ص: 16

[24] ميخائيل باختين، جمالية الابداع اللفظي، ترجمة وتقديم شكير نصر الدين، دار دال للنشر و التوزيع دمشق 2011، ط 01 ص: 293

وعلى ذلك فإنّ أي مقاربة قائمة على تجزيء اللّغة ودراستها مجهريا بالبحث في علاقاتها الدّاخلية وتركيباتها الجزئية، مع إقصاء الأطر الخارجية لها، يعتبر – في نظر باختين – إجحافا في حق التحليل الأسلوبي للنصوص، كونه لا يفضي إلى الغاية النقدية المنشودة في مجال الرّواية، وستبقى تنظيراته حبيسة الجانب اللساني ومظهره النحوي، في حين أن الرّواية تتطلب أفقا نقديا أوسع، ينظر في مضامين الأساليب وتنويعاتها ودلالاتها المعبِّرة عن مختلف أنواع الوعي.

ودعما لذلك، يسوق حميد لحميداني قول **ميشال ريفاتير** – وهو أشهر الأسلوبيين المعاصرين حين لاحظ أن الوصف اللساني البنيوي للأسلوب إذا أريد له أن يكون فعالا ينبغي أن يراعي بأنّ الأدب – وإن كان يقوم بالضرورة على أساس المكونات اللّغوية – له خصوصية تميزه عن الوقائع اللسانية الأخرى، ولذلك فأي تحليل أسلوبي لساني لا يمكن أن ينتهي إلى إبراز الجوانب اللسانية وحدها،"[25] وإلاّ عُدَّ عاجزا نتيجة ما يعتوره من نقائص خصوصا في مجال الدلالة على الجانب الفني والجمالي الذي تضطلعه به اللغة.

إذا فمن الواضح جدا أن « باختين » لم يعمد إلي إرساء نظريته، إلا بعد أن شعر بعقم الأدوات الإجرائية السابقة، خصوصا وأنه احتك بالأسلوبية التقليدية والألسنية، وأدرك مواطن الضعف فيهما، مما أتاح له اقتراح بديل أسلوبي جديد للغة الرّواية، سماه «**ما بعد علم اللّغة**».

- **ملامح تشكل نظرية التّعدد اللّغوي :**

لقد بات جنس الرّواية – على خلاف الأجناس الأخرى – يلحُّ على ضرورة إيجاد أدوات إجرائية مغايرة تمكن النّاقد من مقاربته وفق ما تقتضيه خصوصياته كجنس يتسم بطابع التّعدد اللّساني في اللّغات والأساليب والأصوات، وحتى يتسنى ذلك توجب تشخيص الوحدات التركيبية والأسلوبية التي تشكل في مجموعها أسلوب الرّواية، "إذ يعثر فيه المحلل – برأي « باختين »– على بعض الوقائع الأسلوبية غير المتجانسة، التّي توجد أحيانا على مستويات لسانية مختلفة وخاضعة لقواعد لسانية متعددة، ثم يسوق « باختين » النّماذج الجوهرية لتلك الوحدات التّركيبية والأسلوبية المكونة لمختلف عناصر الوحدة الأسلوبية الكلية للرواية على النّحو التّالي :

1. السّرد المباشر الأدبي في مغايراته المتعددة الأشكال
2. أسلبة مختلف أشكال السّرد الشفوي والتّقليدي أو المحكي المباشر
3. أسلبة مختلف أشكال السّرد المكتوب، المختلفة نصف الأدبية والمتداولة : الرّسائل، المذكرات الخاصة....

[25] حميد لحميداني أسلوبية الرّواية (مدخل نظري) ص: 14/13

4. أشكال أدبية متنوعة من خطاب الكاتب، إلاّ أنّها لا تدخل في إطار الفن الأدبي مثل : كتابات أخلاقية، فلسفية، استطرادات عالمة، خطب بلاغية، أوصاف إثنوغرافية، عروض مختصرة...
5. خطابات الشخوص الرّوائية المتفردة أسلوبيا."[26]

إن المطّلع على هذه النماذج يلحظ تباينا شاسعا بين بعضها البعض مما يثير في الذهن التساؤل عن مدى إمكانية الرّواية في لحمة هذه المتباينات اللّغوية، وصهرها ضمن وعاء واحد بجعلها تتعالق لسانيا فيما بينها داخل الرّواية. "فالرّواية هي التّنوع الاجتماعي للغات، وأحيانا للغات والأصوات الفردية، تنوعا منظما أدبيا، وتقضي المسلمات الضرورية بأن تنقسم اللّغة القومية إلى لهجات اجتماعية، وتلفظ متصنع عند جماعة ما، ورطنات مهنيّة ولغات للأجناس التعبيرية، وطرائق كلام بحسب الأجيال والأعمار والمدارس والسلطات والنوادي والموظات العابرة، وإلى لغات للأيام (بل للساعات) الاجتماعية والسياسية (كل يوم له شعاره، وقاموسه ونبراته)،"[27] فهذه الفسيفساء اللّغوية هي التي تمنح الرّواية تفردها، من خلال قدرتها الاستثنائية في جمع هذا الشتات وتأليفه على صعيد واحد، "فخطاب الكاتب وساردیه والأجناس المتخلّلة وأقوال الشخوص، ما هي إلاّ الوحدات التأليفية الأساس، التي تتيح للتعدد اللساني الدخول إلى الرّواية، وكل واحدة من تلك الوحدات تقبل الأصداء المتعددة للأصوات الاجتماعية وتقبل اتصالاتها وترابطاتها المختلفة التي تكون دائما في شكل حواري، قلَّ أو كثُر، تلك الاتصالات والترابطات الخاصة بين الملفوظات واللّغات، وتلك الحركة للتيمة التي تمرّ عبر اللّغات والخطابات، وتشذّرها إلى تيارات وقطَرات، وصيغتها الحوارية آخر الأمر، هو المظهر الذي يتخذه التفرُّد الأولي لأسلوبية الرّواية."[28] ومن هنا كان إخفاق الأسلوبية التقليدية كونها أغفلت الطبيعة التّعددية للجنس الرّوائي، حين فصلت بين الأسلوب والنوع الأدبي ولم تراعي هذا التّعدد والتّنوع.

إنّ هذا التّعدد الحاصل في أساليب الرّواية وتنوع لغاتها ومستوياتها، نتيجة حتمية للاختلاف الكامن في تركيبة كل شخصية من شخوص الرّواية وإطارها الاجتماعي والثقافي والنفسي والمواقف المتباينة التي تتعرض لها، كما أن الأجناس المتخللة والتي تستوعبها الرّواية، تفرض هي الأخرى نسقا أسلوبيا مغايرا كلما عرضت الرّواية لها، مما يفرض على أسلوب الرّواية تمظهرات مختلفة تبعا لمقتضيات الحال، ويمكن هنا أن نحدد أهم هذه المظاهر :

1. " مظهر لساني: يرجع إلى طبيعة وقواعد اللّغة التي يكتب بها الرّوائي، وهي قواعد وقوانين ذات صبغة تجريدية، تتعلق باللّغة كنسق مغلق، أي ما يسمى في اللسانيات باللّسان، هذه اللّغة كما يؤكد « رولان بارط » ليس لها وجود اجتماعي إلاّ على مستوى قواعد النحو أو التعليم المعياري.

[26] ميخائيل باختين، الخطاب الرّوائي، ص: 38
[27] المرجع السابق ، ص: 39
[28] م، ن، ص: ن

2. **مظهر أجناسي**: يرجع إلى خصائص الجنس الأدبي وتركماته الموروثة، التي ترسم حدوده الأسلوبية وامكاناته التعبيرية والتخييلية.
3. مظهر اجتماعي: ويتعلق بالنبرات الاجتماعية للأسلوب، أي حياة الكلمات وسط الفضاءات الشاسعة للفئات الاجتماعية، حيث الواقع الاجتماعي يعرف عدّة لغات مترعة بالنغمات والنكهات التي تتلبسها عبر الأجيال والحقب.[29]

وعلى هذا فإن أي مقاربة يمكن الاطمئنان إليها، عليها أن تراعي في تعاملها مع الجنس الروائي هذه المظاهر جميعها، لذا يعيب باختين على "الأسلوبية التقليدية، تركيز اهتمامها على المظهر اللساني للأسلوب الرّوائي من حيث قواعد اللّغة الأدبية والبلاغية. وإغفال المظهر الأجناسي والمظهر الاجتماعي للأسلوب الرّوائي. ولعلّ هذا الاقتصار على المظهر اللساني في دراسة الأسلوب الرّوائي هو الذي جعل الأسلوبين التقليديين، يصفون الرّواية في بداية نشأتها بالسوقية، ويعتبرون الرّواية جنسا غير أدبي، أي جنسا مبتذلا، لا يرقى إلى الأجناس الأدبية السامية مثل التراجيديا والملحمة والشعر،"[30] وذلك بسبب ضيق نظرتهم القائمة على التعامل معها بمكيال الشعر.

وخلاصة القول أن فسيفساء اللّغة الرّوائية القائمة أساسا على التباين الاجتماعي والأجناسي واللّغوي، من خلال استقطابها لمختلف اللّغات والأصوات المتشكلة عبر تمظهرات عديدة قوامها استيعاب الأجناس الأخرى وتعدد المستويات اللّغوية للسارد وشخوصه بتعدد مشاربهم الاجتماعية والثقافية والنفسية والتاريخية والأيديولوجية...هي ما يكسب الرواية أسلوبها الخاص القائم على التعدد والتنوع والذي يفترض تعاملا إجرائيا خاصا يكشف بالدرجة الأولى عن ماهية الأساليب المشكلة لمضمون اللغة الروائية ومن ثم تناولها وفق ما تقتضيه متطلبات الجنس الروائي الفنية واللغوية.

[29] محمد بوعزة، حوارية الخطاب الرّوائي، التّعدد اللّغوي والبوليفونية، ص: 21

[30] المرجع نفسه، ص: ن

قائمة المراجع:

01-حميد لحميداني أسلوبية الرّواية (مدخل نظري) منشورات دراسات سميائية أدبية لسانية ط1 1989.

02-صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون الكويت أوت 1992، العدد: 164

03-طه حسين الحضرمي، أسلوبية الرّواية في الرهينة.، موقع شبكة الأمة : الرابط: http://www.thenationpress.net

04-عبد السّلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، الدار العربية للكتاب، ط03.

05-عدنان بن ذريل، النص و الأسلوبية – بين النظرية والتطبيق منشورات اتحاد الكتاب العرب2000 .

06-فيصل دراج، المقال: الكلمة، اللّغة، الرّواية، مجلة الآداب الأجنبية

07-محمد بوعزة، حوارية الخطاب الرّوائي، التّعدد اللّغوي والبوليفونية، منشورات اتحاد كتاب المغرب ط1 2012.

08-ميخائيل باختين، الخطاب الرّوائي، ترجمة محمد برادة، دار الفكر للدراسات والنشر والتّوزيع، ط 1، القاهرة 1987.

09-ميخائيل باختين، جمالية الابداع اللفظي، ترجمة وتقديم شكير نصر الدين، دار دال للنشر و التوزيع دمشق 2011.

10-هنريش بليت، البلاغة والأسلوبية، ترجمة محمد العمري، افريقيا الشرق 1999.

البريد الإلكتروني للمؤلف المرسل:tahribel@gmail.com